مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بجامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد :06/ العـدد:02 / ديسمبر (2022)، ص.283/275

المنظر العجيب في رواية "تلك المحبة" للحبيب السايح

The MarvellousLandscapein the novel « Tilka al-Mahabba » by Al-Habib Al-Sayeh

د. سامية إدريس
Samia.idris@univ-bejaia.dz
جامعة عبد الرحمن ميرة - بجاية
(الجزائر)

تاريخ الاستلام:2022/01/05 تاريخ القبول: 2022/05/08 تاريخ النشر : 2022/12/02

ملخص:

اجتمعت في رواية "تلك المحبة" للحبيب السايح خلطة عجيبة من العناصر الحكائية التي جعلت من منطقة أدرار محفز السرد الأول وباعثه بامتياز، فمنه المبتدئ وإليه المنتهى، وبه يتواشج السرد وإليه تشد لحمة الحكاية. وهذا ما دفعنا لاختيار هذه الرواية ذريعة للتساؤل حول خصوصية المنظر الذي تقوم الرواية بتمثيله، بما أنها تركيبة من المناظر الصحراوية التي تكشف عن نفسها للقارئ في ازدواجية تؤثث المراجع الجغرافية بتشكيلات ثقافية مستمدة من عمق المعتقدات الشعبية الراسخة في المخيال الجمعي لأهل المنطقة.

يتجلى المنظر العجيب بوصفه تشكيلا جماعيا للفضاء يُحْدِثُ في النفس أثرا غامضا من الحيرة والدهشة لخفاء سببها ولخرقه قوانين الطبيعة، يتجلى في تمثيلات للمكان تنطلق من أسماء أماكن مرجعية لتفعل من خلالها تأويلا طوبونيميا يشخص قصصا وكائناتخيالية،ليستوهميةبالضرورة،لكنهاعجيبةبأيحالللماتحدثهمنالدهشةوالاستغرابحولها، على غرار تمثيلالروايةلـ"تمنطيط" وللفقارة.

كلمات مفتاحية:الصحراء، التمثيل، المنظر العجيب،السرد،الطوبونيميا.

Abstract:

In the novel "Tilka al-Mahabba " by Al-Habib Al-Sayeh, thereis a strange mixture of narrative elementsthat made the Adrar region the catalyst for the narration and its first motive. This iswhatprompted us to choosethisnovel as an excuse to question the specificity of the landscapethat the novelrepresents, sinceitis a composition of desertlandscapesthatrevealsitself to the reader in a dualitythatfurnishesgeographicalreferenceswith cultural formations derivedfrom the depth of popularbeliefsrooted in the collective imagination of the people of the region..

The wondrousviewisreflected in representations of the place based on the names of reference places to activate a toponymicinterpretationthatcharacterizes stories and imaginarycreatures, similar to the novel'srepresentation of "Tamentit" and "Al-Foggarat".

Keywords: *Sahara; Representation; MarvellousLandscape; Narration; Toponymy.*

مقدمة:

لطالما شكلت الصحراء جزءا من الوجود العربي، وركنا راسخا في المتخيل الجزائري حيث تحتل المناظر الصحراوية ثلثي جغرافية البلد، ولقداجتمعتفيروايةٍ "تلكالمحبة" للحبيبالسايحخلطةعجيبةمنالعناصرالحكائيةالتيجعلتمنحاضرة أدرارمحفزالسردالأولوباعثهامتياز ،فمنهالمبتدئواليهاالمنتهى ،وبهيتواشجالسردواليهتشدلحمةالحكاية،وهذامادفعنالاختيارهذهالرواية ذريعةللتساؤلحولخصوصيةتمثيل الرواية للمنظر الصحراوي، وقد لاحظنا أن منبع هذه الخصوصية يكمن في المقام الأول من اتصافه بصفة العجيب.

يهدف هذا المقال إلى الوقوف عند المنظر العجيب في رواية "تلك المحبة" لاستجلاء خصوصيات تمثيل الفضاء الصحراوي على صعيدي السرد والحكاية، واشتغاله الطوبونيمي (تمنطيط)، والطوبوغرافي (الفقارة).

1. "تلك المحبة" رواية الفضاء الصحراوي:

لطالما كانت الصحراء جزءا من الوجود العربي، وارتبط بها المتخيل الأدبي منذ نشأة الشعر الجاهلي، وقد وضع العرب للصحراء أسماء كثيرة، يحصيها الدارسون في أربعين اسما وكلها تنطوي على صفات تميز الصحراء عن غيرها من الأراضي، ومما ذكر منها في تفصيل أسماء الأرضين في فقه اللغة للثعالبي : «.. فإذا كانت مع الاستواء والاتساع بعيدة الأكناف والأطراف فهي السهب والخرق ثم السبسب والسملق والملق، فإذا كانت مع الاتساع والاستواء والبعد لا ماء فيها فهي الفلاة والمهمهة ثم التنوفة والفيفاء ثم التفنف والصرماء (...) فإن كانت تبيد سالكها فهي البيداء (والمفازة كناية عنها)..»1 الخ.تمت استعادة كلمة الصحراء Sahara في اللغات الأوربية من العربية خلال غزوات الاحتلال إبان القرن التاسع عشر2، وحولوها إلى اسم علم يعين السهول الصحراوية من الغرب الإفريقي إلى الأراضي المصريةوالسودانية. ومنها الصحراء الكبرى الجزائرية التي تشكل ثلثي مساحة البلد، وهي تقدم مناظر متباينة فإلى جانب "العرق"، وهو السهل مغطى بالكثبان الرملية أو صحراء الرمال، توجد مجموعات ممتدة على مساحات شاسعة تشكل "الرق"، وهو سهل مغطى بالحصى والرمل الخشن أو الصحراء الحصبة، أما "الحمادة"فهي هضبة مغطاة بالصخور الجيرية المسطحة، و"السبخة" من العربية تعني " الأرض المالحة " أو " البحيرة المالحة"، وهي عبارة عن بقايا حوض مائي جوفي تكون أرضيته رطبة وطرية في الشتاء بفعل تساقط الأمطار، وتكون جافة صيفا بفعل ارتفاع الحرارة. إلى جانب "الجبال البركانية" شاهقة الارتفاع نجد منخفضات تحت مستوى سطح البحر بالإضافة إلى الواحات والمدن.

تسرد رواية "تلك المحبة" حكاية الصحراء الجزائرية من خلال منطقة أدرار التي تتخذها فضاء مرجعيا لها، إذ تزاوج الرواية بين أبعاد الزمان والمكان لاستحضار "روح" المنطقة وتراثها الحضاري. «وكما عبر عن ذلك ساور (...) "لا يمكننا تشكيل فكرة عن المشهد [المنظر]إلا بلغة علاقاته الزمانية وكذا علاقاته الفضائية، فهو عملية مستمرة من التطور أو من الانحلال والاستبدال»3 . تزخر الرواية بإشارات كثيرة إلى تاريخ توات وقورارةوتيديكلتوتزروفت التي تشكل أقاليم ولاية أدرار حاليا لما كانت موطن حضارة خصبة تآلفت فيها أقوام من الأمازيغ واليهود والعرب، ومن الإنس والجن، وتروي أفول هذه الحضارة إثر سقوط تمنطيط ونكبة اليهود على يد مُحَمَّد المغيلي التلمساني، ووقوعها بعد ذلك في يد النصارى، مرورا بذكر الحسن الوزان أو ليون الأفريقي، والأب دي فوكو، ووقع المنطقة تحت سطوة الاحتلال الفرنسي وصولا للحاضر. مع ذلك، لا تتبع الرواية مسارا تاريخيا، ولا تعود للتاريخ إلا للحفر في ذاكرة المكان الذي يؤلف المنظر الصحراوي.

2. حول مفهوم "العجيب":

قبلالتوغلفيعجائبالمنظرالصحراويفيروايةٍ "تلكالمحبة"،يتعينعلينااأولاتحديدمانعنيبصفة "العجيب". فالمصطلح ("العجيب") يرد عادة في الدراسات النقدية مع مصطلحات أخرى مجاورة يشتبه بها أحيانا على غرار "العجائبي" و"الغريب"، كما أن له دلالة لغوية تتداخل مع دلالة اصطلاحية تراثية، وأخرى أتى بها التفاعل مع النقد الغربي الحديث، وشابه ما شاب بقية مصطلحات النقد الأدبي العربي من إشكالية الترجمة والتباس الدلالة.

ورد في معجم لسان العرب لابن منظور «عدة تعريفات لمادة (عَجَبَ) ومشتقاتها فمنها قوله : عجب (العجب) "إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده. وفي قوله تعالى:﴿بل عَجِبْتَ و يسْخَرُون﴾، وقال الزجاج: "أصل العجب في اللغة إذا رأى الإنسان ما ينكره ويقل مثله قال عجبت من كذا وقال الأنباري في قوله تعالى (بل عجبت) معناها بل عظم فعلهم عندك وقال ابن الأعرابي أيضا العجب هو: النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد. وقال ابن عباس، رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿ قال أَرَأَيْتَ إذا أَوَيْنَا إلى الصَّخْرَة فإنِّي نَسيتُ الحوتَ وما أَنْسَانيه إلّا الشّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَه واتّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ عَجَبَا﴾، والآدمي لا يتعجب من الشيء إلا إذا عظم موقعه عنده، وخفي عليه سببه، وقال ابن الأثير إطلاق العجب على الله مجاز: لأنه لا يخفى عليه أسباب الأشياء، أو التعجب ما خفي سببه ولم يعلم، وشيء معجب إذا كان حسنا جيدا»4، وقد لخص الزهراني هذه الدلالات في ثلاثة أمور هي: الشيء القليل والنادر، ما خفي سببه ولم يعلم والشيء البالغ في الحسن. أما خالد التوزاني فقد اختزلها في مبدأين هما: مبدأ الإنكار ومبدأ الاستحسان، وهو يستنتج أن باقي المعاجم العربية الأخرى «لم تختلف كثيرا عما أورده ابن منظور في تحديد معنى العجيب، ففي معجم "المحكم والمحيط الأعظم في اللغة"، نجد: "العُجْبُ والعَجَب إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده"، ونجد في المعجم الوسيط: "الهجب روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء، يقال: هذا أمر عجب، وهذه قصة عجب، وعجب عجاب؛ شديد (للمبالغة)"»5، كما يلحظ كثرة الصيغ الاشتقاقية من هذه اللفظة، أما معناها الاصطلاحي في كتب التراث العربي الإسلامي، فنجده في كتاب "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" لزكريا القزويني، فقد صدر كتابه بمقدمة تنظيرية تناول فيها معاني "العجيب" و"الغريب" والفروق بينهما، خلافا لمؤلفين آخرين لم يكترثوا بذلك، واستعملوها على وجه الترادف والتلازم، كما يختلف تعريف القزويني للعجيب عن المعنى اللغوي بعض الشيء، إذ يزيد عليه مبدأ الحيرة التي يستشعرها المتلقي والتي لا تصدر عن قلة الألفة بقدر ما تتولد عن العجز عن إدراك الأسباب وتفسير ما يراه عجيبا. يقول: «العَجَب الحيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة كيفية تأثيره فيه»، فمنشأ الحيرة «عجز عن الفهم، وجهل بالكيفية التي وُجِدت عليها الظاهرة العجيبة ومن ثم، لا تزول الحيرة إلا بالعلم والمعرفة»6، ويضرب القزويني مثالا خلية النحل الذي يعجب منها من لم يشاهدها قط ويعجب من مخلوق صغير كالنحل يبرع في هذه المسدسات متساوية الأضلاع، أما "الغريب" فهو «كل أمر عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة»7 مثل معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء والأبرار، وأخبار الكهنة والكهانة وما إليها. «رغم أن الحدود الموضوعة للفصل بين "العجيب" و"الغريب" تبدو واهية، فإن أمرا هاما يبرز من خلال التعريفين، فيقترن العجيب، منذ الوهلة الأولى بالخلق ذاته، في حين يقترن الغريب بالأحداث المفاجئة»8. لكن القزويني نفسه، كما يشرح وجيد السعفي، لا يلتزم بهذه الفوارق التي قدم لها في متن كتابه، ويدأب على ما درج عليه القدماء في كتب أخرى تنعدم فيها الفواصل بين "العجيب" و"الغريب".

عاد اهتمام الدارسين العرب بميدان "العجيب" في العصر الحديث بتأثير من الدراسات الغربية، حتى أن المعاجم العربية الحديثة قد تأثرت بالمفهوم الغربي للعجيب، وقد استفاد هؤلاء من نظرية تودوروفT. Todorov الشهيرة والتي ترجمت إلى اللغة العربية تحت عنوان "مدخل إلى الأدب العجائبي"9، وقد أثارت ترجمة مصطلح Fantastique لغطا وتشويشا كبيرين على الساحة العربية، بسبب تداخلات مفاهيمية كثيرة بين مصطلحات وافدة وأخرى موطّنة في الثقافة العربية الإسلامية، حيث اشتبك الفانطاستيكي بالعجائبي بالعجيب، واستدخل العجيبُ الغريبَ، واستعمل العجيب للدلالة على العجائبي والعكس، أو الفانطازيوالفاتطاستيكي بمعنى العجيب، واشتبك كل هذا مع "الخارق" و"المدهش" و"السحري". وبما أن المقام هنا لا يتسع للخوض في هذه الإشكالية أو حتى محاولة فك خيوطها10، فسنكتفي باعتماد مصطلح "العجيب" مقابلا للمصطلح الفرنسي Le Merveilleux، بحيث لا يلتبس مع مصطلح Le Fantastique (العجائبي أو الفانطاستيكي). أما اصطلاحا فسنركن إلى تصور القزويني للعجيب، كما مارسه لا كما نظر له، محافظين بذلك على التداخل بين العجيب والغريب، لنتوصل إلى تعريف العجيب بأنه كل ما يُحْدِثُ في النفس أثرا غامضا من الحيرة والدهشة لخفاء سببه أو لخرقه قوانين الطبيعة.

3. السرد وانبثاق العجيب في رواية "تلك المحبة":

يتوزع الفضاء في الرواية على مجموعة من المواضع الجغرافية؛ ولكل موضع قصة أو مجموعة قصص متعلقة به، ليتأطر المجموع ضمن حكاية- إطار هي حكاية "المصنّف" التي تتوزع على مقاطع الرواية السبعة عشر. يروي المصنف

عن محبة من نوع خاص، كتلك التي تجمع بين شخصية البتول وإسماعيل الدرويش، وفي الرواية قصص حب كثيرة كلها أوجه لتلك المحبة، منها قصة الراهب جبريل ومبروكة، الطالب بأحيدة وجولييت، بليلو وماريا، المهندس وجميلة، القوال والجنية ..الخ. ففي تلك المحبة يأتلف المختلفون عرقا ودينا، من الإنس والجن، في الصحراء موطن كل الخوارق. وفيها تتسامى شهوة الجسد إلى وصال العارفين، لتعبر عن فلسفة خاصة استحضرها الروائي في تصورات ابن عربي عن المرأة والجنس والتصوف في الثقافة العربية الإسلامية. ويجتمع السران؛ سر المرأة وسر الخالق، في الصحراء، وما الرواية إلا سعي حثيث لاستنطاق سر الصحراء. تبدأ الرواية على أسلوب المؤلفات التراثية بالاستغفار وطلب الشفاعة من المصطفى والأولياء وغيرها إذ يصطنع الراوي أسلوب الفواصل المسجوعة، واصلا بتقرير موضوع المصنف؛ «أحدث عما يقر في سمع الغوابر والحوادث، ما كان الإنسان منها قد فعل، أو الجان قد صنع. فبين وطن هذا وذاك عرق من الرمل يمتد برزخا، كلما هبت الريح مرطته فالتقى بعض ذاك للعض هذا وحدثت الخوارق. فكانت تلك المرأة التي فطرت على اجتماع الماء والنار والهواء. وكان ذلك الرجل الدرويش، الذي حارت في طبعه العقول يظهر بشرا سويا ويختفي ترابا رمليا في العرق يتذرّى فيصير ألوانه الغروبية تلبسها تلك التي من وراء كفّ البشر تهبط في خيوط شمس ذلك الغروب دفقا من المحبة تغمر قلبه كما في البدء»11. وتنتهي الرواية على ذكر المصنف في خطاب عشقي توجهه المرأة هذه المرة؛ «فضمني إلى صدرك الزاخر بأحلام القمر، إني أتوق إلى البحر. وقبّلني بشفتيك المعسلتين برحيق الفجر، إن اللثج يتذكر ثغري. وانتشر في جسدي عصفا مثل ظلك الندي على رملها الظامئ إلى عرَقي تتفكره عين بودة يوم دفنت فيها برودتي. فإن أدرار لا تسكن قلبي، ها هي بعيدة من أصابعي قابعة في كفك. فهب لي حنينا لا أنسى به أني كنت امرأتها. وارسمني أثرا في مصنفك عنها وشما أكون حبره. وانغز بقلمك لطفا. ثم ادع أن يغفر الله لكاتب المصنف وقارئه ومالكه. وقل: "تلك هي المحبة !"12. تمثل حكاية المصنف نوعا من الميتا-رواية، فهي حكاية عشق يصف فيها الرجل المرأة المحبوبة في تفاصيلها الحسية والمعنوية بكل ما أوتي من محبة، على غرار الرواية التي تتحدث عن محبة أدرار،«مصنّف يُعجم بلسان فقيه وعقل مجرب وقلب عاشق مفاتن امرأة تكون هي النساء جميعا وتكون النساء فيها هن التضمين والتصريح في مملكة السر المعمودة بالقيظ والريح والرمل والحب»13.

تتناسل الحكايات والأقاويل في الرواية على نسق متماثل، حيث تتمحور كل حكاية حول إحدى مفردات المنظر الصحراوي، ناسجة أبعاده العجيبة ومحاولة فك ألغازه فيما يشبه البحث عن البدايات. لا تكتفي الرواية بتعداد المواضع بوصفها معالم مادية، لكنها تجعل منها رموزا، وتذهب أبعد في اختراع الأماكن بما تضفيه عليها من حمولة دلالية يمتزج فيها الواقع بالخيال، ومعتقدات السكان ببنات أفكار الروائي، وتتداخل عناصر طبيعية وفوق طبيعية من خوارق الصوفية وأفاعيل الجن والسحرة.

4.الحكاية وتمثيل العجيب:

يتشكل المنظر العجيب إذن، وفق هذا النسق الذي ترتبط فيه الحكايات الفرعية بالحكاية الإطار، وتنتظم مجموعة المناظر- الحكايات على محور جغرافي يعيد رسم تضاريس ومعالم منطقة أدرار في الصحراء الجزائرية. يقول الراوي على لسان المرأة العاشقة المعشوقة، المرأة السرّ التي تتماهى بها أدرار: «قالت: "لا أعرف لعمري تقويما في هذا الزمن. قد أكون ولدت مع دفقة الماء الأولى، التي انساحت في هذه الأرض البعيدة. وقد تكون صرختي الأولى سُمعت في الشمال. ليس يهم أهل الشأن أن أُنسب إلى أب أو أن تعرف لي أم. فحسبي لا ثلم فيه. وإنما بقدرة الحق كنت. وبالنجدين اهتديت. ولكنني بالهوى ضللت. لذا، ما حييت كنت المغفرة طلبت." »14. على غرار هذه المرأة، لا يعرف الباحثون والعلماء الشيء الكثير عن نشأة أدرار وحواضرها، ولسد هذه الثغرة يقترح الراوي حكاية عجيبة في تفسير نشأتها؛ «يقولون كان ذلك منذ طلوع أول شمس، يوم طارت حمامة بين الشجرة الممسوسة بنار وبين النبع المتدفق بنور فكنتُ، فتناساني التراب فاعتراني النقص فرحت في قلب الطير المهاجر أبحث عنك في روحي لأقول لك حقيقتك المنسية في غور أحلامي» 15. يتجلى العجيب هنا في قوانين غير ما نعرف، لا ينكرها القارئ الضمني أو الشخصيات، إذ يتم استدعاء اليوم الأول من الخليقة، حين طلعت أول شمس، وتذكر أمور لا تعليل لها ولا منطق يحكمها سوى منطقها الخاص، كطيران هذه الحمامة بين نار الشجرة ونور النبع المتدفق، لتكون هذه المرأة (أدرار) من امتزاج عنصري النار والنور، وغيابها لتظهر في قلب طير مهاجر. تحدث هذه التركيبة في نفس المتلقي أثرا غامضا؛ مدهشا ومحيرا في

الآن نفسه، ولكنه مصدر متعة بالتأكيد. «قد تكون تلك الحمامة رمتني قبسة من منقارها فُلتُ إلى جزيئات الرمل الذي بسط الصحراء. وقد تكون الرياح حملتني نواة انشقت منها شجرة تحبل مثلي وتعطي من جسمها طعم الحياة، كما أهب من جسدي لذة الحب فأجري في الدم هواء معطرا بالرغبة» 16، ومما يزيد من تجلي المنظر بصفة العجيب استعمال صيغ الترجيح والاحتمال فيما قد يكون عليه مبتدأ الأمور ومآلها، «لعله، لذلك، يكونون هم الذين قالوا إن قدري دحرجني إلى إقليم العطش ليُجْريني غيرة منهمرة من أكباد النساء وفتنة جارية في قلوب الرجال، كما يجري ما الحياة في فقارات (توات) الهادئة، أو يسري صمت السر في (قورارة) الهائمة، أو تعوي الريح في (تيدكلت) القاهرة. فأنت مكفول بأن تعرف أنها ثلاثٌ، كلها بين خصب امرأة تلد الطلع. ومن عقْر ناقة تدخر الملح. ومن هيجان ريح تغسل الجدب بالرمل، مثلما أتوضأ بالشمس أنا» 17. لا ترى العين حين تنظر في صحراء أدرار بتضاريسها المتنوعة وما حوت من مظاهر الطبيعة أو ما نحتته يد الإنسان ما تقدمه الحواس فقط، بل ترتسم في كل حبة رمل، وفي كل شعاع شمس، وفي كل هبة ريح، وفي كل نخلة و فقارة، في كل قصر وواحة وفي كل مقام ومسجد علامات الحضور والغياب، وأمارات محبة تنفطر منها قلوب النساء والرجال غيرة وفتنة، إذ يروي كل جزيء من أدرار تفاصيل تلك المحبة.«كان حازيتمنطيط، لما تماهى عليه، لما قابلها، قال لها بعد أن نزل عن ناقته فقبّل قدمها العارية وتمسح بها: "أنت الأثر الذي حيرني في كل مقام زرته من مقامات الأولين، من عين صالح إلى (أقبلي) ومن (إنغر) إلى (إغزر) ومن قصر الشرفا إلى (أقبور) ومن (الهبلة) إلى (طلمين) ومنها إلى (ماسين) فإلى (تبلكوزة) إلى الشتات حيث رأيتك واقفة نخلة من نور تشع منها ألوان قزحية، محللة بساعات ما طربت لها من قبل أذن، افتربت مني ثم غمرتني". وإذ مددت أصابعي لأدنو منك على ضمئي، أحمل قدَح فألي الذي طرقته لي طيطمة عرافة (إغزر) لتقرئيه فتقرري وصلي أو إعدامي، خبا كل شيء بغته. فانحلت قبضتي عن سهمي فانمحت كتابته. ولمّت عليك صلصة غيّبتك إلى صمت العرق الغربي فتخالطت به. فأمسى متلبسا بك في تمدده. وحواك أميرة زناتية، انتظرت في الحجبة أوبة زوجها من المسجد العتيق قرنا من الزمن مثلما دخلته أول مرة عروسا في الواحة الحمراء لم تَخُل منها شعرة واحدة، على الزينة والجمال والشوق والآمال الباقية.»18. إن لكل منظر حكاية عجيبة يلتحم فيها العشق بالإيمان والجنس بالمقدس، كما يتصوره شيخ العارفين ابن عربي، الذي استدعاه السارد عن طريق التناص مبرزا رؤيته لمكانة المرأة ونظرته لحبها سبيلا لمحبة الخالق، ورد في الرواية: «فقد خرجت على جبين مولى بكار حبات عرق لما قرأ بصوت خافت، فيه بحة الحدج: "قال شيخ العارفين ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة أي غاية الوصلة التي تكون في المحبة فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها ولذلك أمر الاغتسال منه فعمت الطهارة كما عم الفناء فيعا عند حصول الشهوة"، بينما كان الشيخ غارقا في أمر عميق» 19 . ومن عناصر العجيب اجتماع شذرات من التصوف الإسلامي والمسيحي بالسحر والشعوذة وطقوس الطرقية بعناصر أخرى من تقاليد أهل المنطقة وثقافتهم الشعبية المتنوعة، والرواية كلها مثال على ذلك.

يسهم زخم العجيب في تعطيل السرد بوصفه متتالية من الأحداث المرتبة كرونولوجيا، فللعجيب قوانينه الخاصة، التي سمحت على الصعيد الفني بتحقق وظيفتين تبدوان متعارضتين؛ فمن جهة يتم نفي الزمن الخطي وفكرة التاريخانية نفسها، ومن جهة أخرى وبفعل هذا التعطيل نفسه للبعد التاريخي، يتم استحضار الذاكرة بشكل قوي، ذاكرة تحييها المناظر بوصفها ذاكرتها الخاصة بالذات. يتحدث الروائي عن نشأة مدينة أدرار قائلا: «ولم يذكر صاحب المصنف مَن بنى المدينة التي نزلتُها، كأنها حطت طفرة، فإنه لا يُعرَف لها تاريخ بدء. ولكن أهل الشأن يقولون إن الرجل مثل الفلك لا مرساة له في ميناء إلا امرأة. وزعموا أني كنت الظل في شاطئ لأدرار بلا بحر، نزل في جسدي شعاع رجل فأسبغ على أنوثتي فانهروا فتلبثوا فصاروا يغرسون مثيلتي ويسمونها نخلة ينتظرون تذكيرها ثم يصيحون: "هي !" فجميع من حل بالمدينة وجد قبله من سبقه إليها»20، فلا نعثر على بداية استيطان للمدينة لأن كل من استوطنها وجد من سبقه إليها، لكننا نغوص في ذاكرتها المنسوجة من اجتماع عناصر الأنوثة والذكورة لتعلن ميلاد الحياة فيها، حياة تتجدد مع كل وصل بين المحبين، وفي كل موسم يؤتي فيه النخيل طلعه. في هذه الرواية يصطبغ الزمان نفسه بخصائص المكان، ويتحول للديمومة بدل السيرورة، ويوهم بالثبات بدل التحول.

5. الطوبونيميا وتمثيل المنظر العجيب:

تعرض الرواية توزيعا طوبوغرافيا للأماكن بما ينسجم مع المرجع الجغرافي الواقعي، متضمنا أسماء الأماكن ومواقعها، على غرار أبواب أدرار الأربعة وحواضرها الثلاث، وأسماء الفقارات والقصور وغيرها، لكن الراويلا يكتفي بذكر الأماكن، بل يمارس انطلاقا منها نوعا من الطوبونيميا (دراسة أسماء الأماكن Toponomie) 21، لا على الطريقة العلمية، وإنما عن طريق إعادة تشكيل أو ابتكار مخيال جماعي حول المكان المذكور، مخيال يعتبر "العجيب" سمته الأولى، مثلما هو الشأن مع "تمنطيط".

يذهب الدارسون لتاريخ المنطقة ولحاضرة تمنطيط التي كانت عاصمة توات لعدة قرون، إلى أن لأصل تسميتها روايتين؛ «الأولى ذكرها ابن بابا حيدة مؤرخ المدينة وهي: أن اسم تمنطيط هو اسم اعجمي زناتي مركب من كلمتين هما "اتما" وتعني النهاية. و"تط" تعني العين بالعربية (ابن بابا، ص15)، وهناك رواية أخرى لمعنى تمنطيط، وهي أمان (الماء) وتيت (العين) بحيث يكون مجموعهما أمانتيت، أي عيون الماء لكثرة المياه بالمنطقة، ثم تحولت إلى تامنتيت أو تمنطيط (بن سويسي، 2008، ص31)»22، أما الرواية فتورد روايات أخرى حول أصل التسمية، منها يتصل بنشأة الحاضرة على أيدي الجان الذين جلوا عنها لغيرهم من الإنس تاركين لهم سرها لغزا يواريه الزمن، «كلما طلعت الشمس عليهم رسمت بشعاعها، لستة أيام، حرفا على الرمل فحملوه في عيونهم ثم نقشوه على السور فراح يتبدى لهم في كل ما يقع عليه نظر. فتساءلوا فأصبحوا في ساحتهم على مرقوم من ماء أوّلهُ لهم شيخهم، قائلا: "شيئان معقودان مثل الحاجب للعين، تلك هي تمنطيط." ويوم تبخرت الحروف الستة خبأوا في صدورهم صمت الطوب. فحالت تمنطيط لغزا كوجودها الخفي على ظهور لأمر مستور» 23.يلعب المكان اسما ومسمى دور المحفز لعملية السرد، والباعث عليها، تحاك الأعاجيب حوله لتحيي ذاكرة المكان، وتؤثث المنظر بعين الخيال والانفعال، فتمنطيط شادها جن مؤمنون طوعهم معلم من الإنس وبعثم لاستيطانها، وتأمينها من نظرائهم الجن الكافرين، قبل جلائهم عنها تاركين أنفاسهم في طوبها، وقد امتد مملكة الجان هذه قبل أن تستتبعها مملكة غريس (في ولاية معسكر) في الشمال إلى المغرب لسلطتها؛ «وقيل زفر الرمل ظمأه إلى عرَق أولئك الذين كانوا قبلهم استوطنوا بلدة تمنطيط، التي لم يقدَّر لها عمر ولا عُرفت لها يد شيدتها إلا ما تواتر باللسان عن مخلوقات زعم عنها أنها عفاريت اتخذت منها إمارة سادت قبل أن تخضع لمملكة غريس هنالك في التل من حيث يمتد سلطانها إلى أمارة في مغرب الشمس بنيت تحت الأرض عند المحيط بوابتها مغارة تزهد فيها نصراني رجل صالح »24. يحيل الراوي هنا إلى ما يعرف بـ"مغارة دانيال"، التي تكثر حولها الإشاعات، ومما يشاع عنها بأنها مدرسة للسحرة، ومدفن الجن الذي صرعه النبي دانيال بين صراع بينهما حول الإيمان والإلحاد.تحفل الرواية بأمثلة أخرى حول اشتغال التخييل على توبونيما المكان والتأسيس للمخيال العجيب المنوط بها كما هو الشأن مع "فقارة هنو"، "رجم اليهودي" وغيرها من المواضع ذات المرجعية الجغرافية والتاريخية وقد لا يتسع المقام هنا للتفصيل فيها جميعا.

6. الفقارة موردا للعجيب:

في أحيان أخرى يستنهض العجيب من عراقة المنظر وسطوة الذاكرة معانقة الحكايات حوله، خاصة حين يتحدث الراوي عن نظام الفقارة. «تتميز ولاية أدرار جنوب الجزائر دون سواها من بقية مناطق الجزائر خصوصا بنظام الفقارة، الذي هو عبارة عن سلسلة من الآبار المائية المتصلة بعضها ببعض في طريقة تصاعدية عجيبة وطريقة توزيعية للمياه أعجب، وهو نظام قديم جدا تعدد الروايات في أصله ومصدره واتفقت على شيوعه وانتشاره في أكثر من عشرين منطقة من ربوع العالم. غير أن ما يميز المنطقة التواتية في نظامها المائي هو توارثه عبر الأجيال منذ عدة قرون إلى الآن مع المحافظة على كثير من مقوماته وأسس بنائه.. »25. ورد في الرواية عن استعصاء معرفة أصل الفقارات ومنشئيها الأوائل ما يلي: «لم تترك الريح لقصة الفقارات رسما على الرمل. لكنها باقية شاهدة على زمن الماء في صحراء الصمت والقهر. كأن أفواهها آثار من مداخل بلاد تحت الأرض يعمرها خلق آخرون. فمنها ما هلك فآل ردما. ومنها الذي لا يزال يحن إلى يد تعود لرفع الطمي وكسر الجحود، كما على عهد العبيد والحرثانيين الذين سخرهم الأسياد إلى آخر نز من عرقهم ليشقوا لهم بها دفقا إلى القصور والقصبات»26. يعزى تشييد الفقارات إلى قوم من الجن استوطنوا إمارة تحت الأرض وتشبه آبارها بمداخل لإمارتهم تلك. لكن ترميمها ورفع الطمي عنها ينسب للبشر من عبيد وحرثانيين سخروا لهذه المهمة. يستعيد الروائي صورة مخارج الفقارات أو مداخل مملكة الجان في أكثر من موضع، معززا سمة العجيب التي تنجم عنها، حيث يتساءل الراوي على لسان شخصية بليلو المنحدرة من طبقة العبيد حول هوية من شق الفقارات

متحيرة من طولها بما يتجاوز مقدرة البشر. يقول: «ولما رجع لأمه في اليوم الثاني منهك الأنفاس متفصد الرجلين، لا يثوى على حراك، مسكونا بحيرته في كم يوم كان للماء أن توصله الأيدي من تحت الأرض إلى سطحها بذلك الطول، سألها إن لم يكن كفار العفاريت التي كانت تسكن تحت قصرهم، كما حكت له، هي التي شقت للماء مجاريه قبل أن تطردها إلى (تادمايت) عفاريت من الجن المؤمنين، لقطعها الطريق على المسافرين وخطف النساء وأكل الأطفال، فصارت تصدر تلك العواءاتنحيبا يسمع مع الريح كلما عصفت»27. تزودنا الحكاية الشفوية للأم بتفسير لتسمية الفقارات كذلك، حيث تحدث ابنها عن أن أصل الفقارة من اليمن لكن حافريها من العبيد هم من منحها اسمها، «وأوصته أن لا ينسى أن أجداده هم الذين فقروا الأرض، كما يفقر الذيب النعاج، سموها الفقارة فغلب اسم اليد التي حفرت اسم اليد التي ملكت»28. لا نجد في خطاب الراوي أي إشارة أو استنكار لازدواجية حكاية الأم حول الفقارات، فلا نكاد نشعر باختلال بين قولين ظاهرهما التناقض حول هوية مشيد الفقارات، ففي النص الواحد يعزى بناؤها للعفاريت وللبشر، وتلك خصيصة العجيب، وسيرا على المنطق العجيب نفسه تتحول منافذ الفقارات لرؤوس غيلان تعيش تحت الأرض خنقتها عفاريت المياه المؤمنة لمنعها من أكل الأطفال. بعد بضعة أسطر، تتحفنا الرواية بوصف "أنثروبولوجي" إن صح التعبير للفقارات حيث تشرح طريقة حفرها والأسماء المحلية التي تطلق على أجزائها. «كان لبليلو، بعد سنين، أن يدرك أن العبيد كانوا يشْقون بكل ما جمعته بلاد توات من عذاب للإنسان في هذه الدنيا. يمخرون الأرض ويخرجون ترابها ثم طميها من الفجر إلى الغروب تحت رقابة واحد ممن يختاره الأسياد يتقن الحرفة ويعرف مبيت النملة والعقرب. ينزلون بالحبال أحيانا إلى عمق أربع وعشرين خطوة ليشفوا للماء انحداره عبر أنفاق بلا عوامد. كان الصيف يدور عليهم أربع مرات قبل أن يخرجوا أخيرا إلى النور فيشقوا (الأغوسرو) على سطح الأرض من آخر بئر من المنحدر. ثم يبنون (القصري). وعند مخرجه يقيمون (المشطة)، التي منها يمدون السواقي الصغيرة إلى البساتين التي ظلت لا تثمر إلا بأيديهم. فإن نقص تدفق الماء في فقارةٍ ما راحوا يحفرون المنحدر إلى الأعلى آبارا أخرى بالمشقة نفسها، صابرين لأمر ربهم راضين بمكتوبه»29، والمعلومات التي يقدمها الراوي هنا من الدقة والمطابقة للمرجع الخارجي بحيث تصلح للتوثيق.

تسمح هذه المزاوجة بين المرجعية الواقعية والمخيال العجيب الذي يحوط بالمنظر، والاستثمار في طوبونيميا وطوبوغرافيا المكان، والتعويل على الخاصية العجيبة، بالوقوف على خصوصية تمثيل المنظر الصحراوي في رواية "تلك المحبة" للحبيب السايح

خاتمة:

نستخلص مما سبق أن خصوصية تمثيل الفضاء الصحراوي في رواية "تلك المحبة" للحبيب السايح نابعة من النمط التخييلي الذي ابتكره الروائي، والذي يجعل من العجيب متكأ له؛

* فعلى صعيد السرد، يتم استنهاض العجيب من بنية الحكاية – الإطار، حكاية المصنف، التي شكلت نسقا تتناسلالحكاياتوالأقاويلحوله، ويؤدي العجيب هنا وظيفة تعطيل البعد الزمني للسرد لصالح انتشاره أفقيا على مفردات الفضاء الصحراوي.

* وهنا تؤدي الحكايات الفرعية وظيفة تمثيل المنظر الصحراوي، ناسجة أبعاده العجيبة ومحاولة فك ألغازه فيما يشبه البحث عن البدايات.

* يستنهض العجيب كذلك حول الفضاء الصحراوي من خلال أسماء الأماكن التي يمارس عليها الروائي تأويلا طوبونيميا، يتصيد دلالاته من المخيال الشعبي المحلي.

* يتم تخليق العجيب كذلك من المناظر التي تشكل عجائب في ذاتها، على غرار نظام الفقارات، حيث لا يزيد الروائي عن الواقع شيئا سوى تصويره اللغوي المجازي.

قائمة الإحالات:

1 أبو منصور بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري: فقه اللغة، وقف على تصحيحه و ضبطه أحد الآباء اليسوعيين مدرس البيان في كلية القديس يوسف في بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1885، ص292.

2 Rachel BOUVET ; Pages de sables ; Essai sur l'imaginaire du désert, XYZ éditions, Montréal, 2006 ,P 34.

3 مايك كرانغ: الجغرافيا الثقافية، ترجمة: د. سعيد منتاق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو 2005.ص32.
4فيصل بن صالح بن محمّد الزهراني: "دلالات واتجاهات القصص العجيبة والغريبة في رحلة ابن بطوطة -دراسة تحليلية-، مجلة جذور، العدد 48، ديسمبر 2017، ص326.
5 خالد التوزاني: الرحلة وفتنة العجيب بين الكتابة والتلقي، دار السويدي للنشر والتوزيع – الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - لبنان، ط1، 2017، ص27.
6 المرجع نفسه، ص36.
7 وحيد السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن؛ تفسير ابن كثير نموذجا، الأوائل للنشر والتوزيع، سوريا، 2006، ص35.
8 المرجع نفسه، ص36.
9 توفيتان تودوروف: مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، تقديم محمّد برادة، دار الكلام، الرباط، ط1، 1993.
10 يمكن العودة في هذا الصدد إلى عبد النبي اصطيف: "أزمة المصطلح النقدي في الثقافة العربية المعاصرة"، مجلة الآداب، العدد 6/5، 1999.
لؤي علي خليل: "العجائبي والمفاهيم الحافّة"، مجلة البحرين الثقافية، المجلد 11، العدد 38، 2004. على سبيل المثال.
11 الحبيب السايح: تلك المحبة، فضاءات للنشر والتوزيع – الأردن، دار ميم للنشر – الجزائر، ط1، 2016، ص11.
12 الرواية، ص307.
13 الرواية، ص95.
14 الرواية، ص13.
15 الرواية، ص13.
16 الرواية، ص14.
17 الرواية، ص14.
18الرواية، ص16.
19 الرواية، ص 245.
20 الرواية، ص19.
21راجع محمّد البركة وآخرون: ، الطوبونيميا بالغرب الإسلامي أو ضبط الأعلام الجغرافية، الدار البيضاء،إفريقيا للشرق،2012، ص 14 و15.
22 مبارك الجعفري : "حاضرة تمنطيط بمنطقة توات ومكانتها العلمية والاقتصادية خلال القرنين 09 و10 هـ/ 15 و16م"، نص مداخلة للملتقى الدولي الأول الحواضر الجزائرية التأسيس والأدوار، جامعة أدرار، 04 و05 مارس 2020، ص3 و4. على الرابط:
https://dspace.univadrar.edu.dz/xmlui/bitstream/handle/123456789/5110/%d8%ad%d8%a7%d8%b6%d8%b1%d8%a9%20%d8%aa%d9%85%d9%86%d8%b7%d9%8a%d8%b7%20%d8%a8%d9%85%d9%86%d8%b7%d9%82%d8%a9%20%d8%aa%d9%88%d8%a7%d8%aa%20%d9%88%d9%85%d9%83%d8%a7%d9%86%d8%aa%d9%87%d8%a7%20%d8%a7%d9%84%d8%b9%d9%84%d9%85%d9%8a%d8%a9%20%d9%88%d8%a7%d9%84%d8%a7%d9%82%d8%aa%d8%b5%d8%a7%d8%af%d9%8a%d8%a9.pdf?sequence=1&isAllowed=
تاريخ التحميل: 2021/06/24
23الرواية، ص28.
24الرواية، ص27.
25أحمد أبا الصافي الجعفري: من تاريخ توات؛ أبحاث في التراث، منشورات الحضارة، الجزائر، ط1، 2011، ص610.
26الرواية، ص71.
27الرواية، ص83.
28الرواية، ص83.
29 الرواية، ص85.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الكتب:

- أبو منصور بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري: فقه اللغة، وقف على تصحيحه و ضبطه أحد الآباء اليسوعيين مدرس البيان في كلية القديس يوسف في بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1885.
- أحمد أبا الصافي الجعفري: من تاريخ توات؛ أبحاث في التراث، منشورات الحضارة، الجزائر، ط1، 2011.
- توفيتان تودوروف: مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، تقديم محمّد برادة، دار الكلام، الرباط، ط1، 1993.
- الحبيب السايح: تلك المحبة، فضاءات للنشر والتوزيع – الأردن، دار ميم للنشر – الجزائر، ط1، 2016.

- خالد التوزاني: الرحلة وفتنة العجيب بين الكتابة والتلقي، دار السويدي للنشر والتوزيع – الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - لبنان، ط1، 2017.
- مايك كرانغ: الجغرافيا الثقافية، ترجمة: د. سعيد منتاق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو 2005.
- مُحَمَّد البركة وآخرون: ، الطوبونيميا بالغرب الإسلامي أو ضبط الأعلام الجغرافية، الدار البيضاء، إفريقيا للشرق،2012.
- وحيد السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن؛ تفسير ابن كثير نموذجا، الأوائل للنشر والتوزيع، سوريا، 2006.
- Rachel BOUVET ; Pages de sables ; Essai sur l'imaginaire du désert, XYZ éditions, Montréal, 2006.

2. المقالات:

- عبد النبي اصطيف: "أزمة المصطلح النقدي في الثقافة العربية المعاصرة"، مجلة الآداب، العدد 6/5، 1999.
- فيصل بن صالح بن مُحَمَّد الزهراني: "دلالات واتجاهات القصص العجيبة والغريبة في رحلة ابن بطوطة -دراسة تحليلية-، مجلة جذور، العدد 48، ديسمبر 2017.
- لؤي علي خليل: "العجائبي والمفاهيم الحافّة"، مجلة البحرين الثقافية، المجلد 11، العدد 38، 2004.

3. مواقع الأنترنيت:

- مبارك الجعفري : "حاضرة تمنطيط بمنطقة توات ومكانتها العلمية والاقتصادية خلال القرنين 09 و10 هـ/ 15 و16م"، نص مداخلة للملتقى الدولي الأول الحواضر الجزائرية التأسيس والأدوار، جامعة أدرار، 04 و05 مارس 2020. على الرابط:
https://dspace.univadrar.edu.dz/xmlui/bitstream/handle/123456789/5110/%d8%ad%d8%a7%d8%b6%d8%b1%d8%a9%20%d8%aa%d9%85%d9%86%d8%b7%d9%8a%d8%b7%20%d8%a8%d9%85%d9%86%d8%b7%d9%82%d8%a9%20%d8%aa%d9%88%d8%a7%d8%aa%20%d9%88%d9%85%d9%83%d8%a7%d9%86%d8%aa%d9%87%d8%a7%20%d8%a7%d9%84%d8%b9%d9%84%d9%85%d9%8a%d8%a9%20%d9%88%d8%a7%d9%84%d8%a7%d9%82%d8%aa%d8%b5%d8%a7%d8%af%d9%8a%d8%a9.pdf?sequence=1&isAllowed=

تاريخ التحميل: 2021/06/24.